المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES
(معهد الدوحة)
www.dohainstitute.org

تقييم حالة

نجاح ثورة تونس أو فشلها في ميزان علم الاجتماع الثقافي؟

سيادة اللغة العربية، أين هي في مسار الثورة التونسية؟

د. محمود الذوادي

الدوحة، حزيران/ يونيو – ٢٠١١

سلسلة (تقييم حالة)

حقوق النشر والطبع محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © ٢٠١١

المحتوى

نجاح ثورة تونس أو فشلها في ميزان علم الاجتماع الثقافي؟ .....

ثورة الرموز الثقافية ١

صمت عن الاستعمار اللغوي الثقافي..... ١

غياب السيادة الأخرى ٢

معايير السيادة اللغوية في المجتمعات المتقدمة: ٣

ضعف السيادة اللغوية في المجتمع التونسي ٣

جذور ضعف السيادة اللغوية ٦

عجز التعليم الصادقي عن تحقيق السيادة اللغوية: ٧

المكانة الأولى للفرنسية وثقافتها عند الصادقيين: ٨

الحديث التونسي التقليدي عن التعريب: ١٢

معالم تآمر المثقف مع الأمير..... ١٥

ضرورة الثورة لإسقاط نظام التعليم ٢٠

ثورة الرموز الثقافية

تُنادي شعارات الثورة التونسية بالقطيعة مع النظام السياسي لعهديْ بورقيبة وبن علي اللذيْن حكما البلاد دون ديمقراطية وحريّة تعبير ولا عدالة في التنمية بين مناطق البلاد. فهي في رأيي **ثورة** في منظومة **الرموز الثقافية**: القيم والفكر والرّؤية للذات، وتصوّر لماضي المجتمع التونسي وحاضره ومستقبله. وممّا زاد في غضب التونسيّين **وتثوير بوصلتهم الثقافية** القبضة الحديدية البوليسيّة لنظام بن علي واستشراء الفساد في حاشيته وفي طليعتها زوجته "حاكمة قرطاج" وأسرتها (عائلة الطرابلسي) التي عاث أفرادها فسادًا داخل المجتمع التونسي وخارجه.

يطالب روّاد الثورة ومعظم التونسيّين اليوم بتأسيس **ثقافة جديدة** تحتضن ديمقراطيةَ حقيقيّةَ وحريّة تعبير وعدالة كاملة في تنمية كلّ الجهات، بحيث يوضع حدٌّ لثقافة إرث النظام السياسي المستبدّ والقمعي خلال عهديْ بورقيبة وبن علي اللذيْن امتدت فترة حكمهما معًا أكثر من نصف قرن.

صمت عن الاستعمار اللغوي الثقافي

من مفارقات هذه الثّورة الثقافية، أنّ أغلبيّة التونسيّين **تلوذ بصمت شبه كامل** بشأن الإرث اللّغوي الثقافي الاستعماري الذي عمل على تجذيره نظاما بورقيبة وبن علي في شخصيهما وفي مؤسّساتهما وفي ثقافة المجتمع التونسي بصفة عامّة، بحيث أصبح معظم التونسيّين عن وعي ودون وعي يفتخرون بذلك الإرث وينادون بالإبقاء عليه وبصيانته. ويتمثّل هذا الصمت في سكوتهم عمّا أسمّيه **التخلّف الآخر** متمثّلاً في الإرث اللغوي الثقافي الاستعماري الفرنسي الذي نجح بورقيبة وبن علي في المحافظة عليه على حساب الاستقلال اللغوي الثّقافي من المستعمر الفرنسي[1]. إنّ مناداة بورقيبة وبن علي بصيانة الإرث اللغوي

[1] محمود الذوادي، **التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث**، (تونس: الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢).

الثقافي الفرنسي على حساب لغة البلاد وثقافتها تعدّ شهادةَ على ضعف رؤيتهما **للوطنية الحقيقية** وقصورها.

يعلن الدستور التونسي في بنوده الأولى أنّ اللغة العربية هي اللّغة الوطنية للمجتمع التونسي المستقلّ، فكيف يجوز وصف نظاميْ بورقيبة وبن علي والنّخب السياسية والفكرية والمتعلّمة بالوطنية الحقيقية وهم قد عملوا ويعملون على تهميش اللّغة العربية وثقافتها[٢]؟

غياب السيادة الأخرى

تقترن مفردة السّيادة في القاموس السياسي التونسي بقدرة الدولة على الدّفاع عن حدود الوطن وصيانة أمنه الداخلي والحفاظ على استقلاليّة سياستها الخارجية. ومن ثمّ، سُمّيت وزارات الدّفاع والداخلية والخارجيّة وزارات السّيادة. وفي المقابل، يلاحظ المرء اليوم **غيابًا مفزعًا** لدى التونسيين لما أودّ تسميته **السّيادة اللغوية**، أي اعتبار اللغة العربية/الوطنية رمزًا لسيادة البلاد التونسية، مثلها مثل العلم التونسي وبقيّة معالم السّيادة التي تتبنّاها اليوم الأقطار الصّغيرة والكبيرة في العالم. فمثلا، تتبنّى المجتمعات المتقدّمة مبدأ السّيادة اللغوية عقيدةً مقدّسة لا تقبل التّشكيك فيها أو التعدّي عليها. وهذا ما نلاحظه في الاتّحاد الأوروبي الذي يضمّ أكثرَ من عشرين دولة تحترم فيه بالتساوي لغة أكبر الأعضاء كألمانيا وأصغر الأعضاء كمالطا، إذ **اللّغة هي رمز لسيادة** كلّ واحدة منها ولا يجوز التّنازل عنها[٣].

---

[٢] محمود الذوادي، **الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث**، (تونس: تبر الزمان، ٢٠٠٦).

[٣] P. Kraus, *A Union of Diversity: Language, Identity and Polity-Buildingin Europe*, (Cambridge: Cambridge University Press, ٢٠٠٨).

معايير السيادة اللغوية في المجتمعات المتقدمة:

من خلال ملاحظة المجتمعات المتقدّمة اليوم، يمكن استخلاص أبرز معالم **سيادتها اللغوية** والمتمثّلة في العناصر التالية:

١- الاستعمال الكامل للّغة الوطنيّة على المستويين الشّفهي والكتابي.

٢- احترامها والاعتزاز بها والغيرة عليها والدّفاع عنها.

٣- معارضة استعمال لغة أجنبيّة بين مواطني تلك المجتمعات.

٤- شعور عفوي قويّ لدى المواطنين بالأولويّة الكبرى لصالح استعمال اللّغة الوطنيّة في مجتمعاتهم.

٥- مراقبة ذاتيّة واسعة لدى المواطنين تجعلهم يتحاشون استعمال الكلمات والجمل الأجنبيّة، مع وجود سياسات وطنيّة متواصلة عند السلطات لترجمة المصطلحات والكلمات الأجنبيّة الجديدة إلى اللّغة الوطنية.

٦- اقتران اللغة الوطنيّة بتحديد هويّات الأفراد والجماعات في تلك المجتمعات.

ضعف السيادة اللغوية في المجتمع التونسي

تبيّن تلك المؤشرات الستّة أنّ حال السيادة اللغوية في المجتمع التونسي **ضعيفة** في كلّ واحد من تلك المؤشّرات:

١- فعلى المستوى **الشفهي**، يمزج التونسيون حديثهم كثيرا بكلمات وجمل وعبارات فرنسية، حتى أنه يصحّ وصْف **اللهجة التونسية** بأنها **فرنكو عربية** *le franco-arabe* في الصّميم، بحيث يجوز القول إنّ التونسي

العادي يستعمل في الغالب كلمة فرنسيّة في كلّ عشر كلمات (١٠/١) من حديثه بالعاميّة مع التونسيّين. فالمزج اللّغوي في المجتمع التونسي يمثّل **المعيار اللغوي الاجتماعي**، الأمر الذي يجعل الحديث بلهجة تونسيّة عربيّة خالية تمامًا من أيّ كلمة فرنسيّة ضربًا من **السّلوك اللغوي المنحرف** عند معظم التونسيّين، وهو سلوك طالما يقابل بالتعجّب والحيرة وحتى التهكّم والسّخرية. ففي قطاع الإعلام المرئي، تتصدّر **قناة نسمة** القنوات التونسية في تبنّيها لخطاب الفرنكو عربية الفوضوي والمشين.

أمّا استعمالُ اللّغة العربيّة في **الكتابة** عند التونسيّين فهو لا يزال **محدودًا** في الأمور الكبيرة والصّغيرة. فأكثرهم يكتبون مثلاً صكوكهم المصرفيّة بالفرنسية، وكذلك إمضاءاتهم. واللّغة العربية المكتوبة **غائبة** في العديد من المؤسّسات التونسيّة الحديثة، فالفرنسية هي لغة العلوم في المؤسّسات التعليمية التونسية ابتداءً من مرحلة التعليم الثانوي وانتهاءً بمرحلة الدّراسات الجامعيّة العليا. كما أنّ الفرنسيّة تبقى لغة الكتابة لأنشطة جلّ البنوك التونسية. ومن آخر معالم فقدان السّيادة اللغوية المكتوبة في العهد البائد صدور مجلّتين تونسيّتين **بالفرنسيّة فقط**: Nos Enfantsالموجّهة إلى الأسرة التونسية، وهي تابعة لعائلة الرّئيس المخلوع بن علي وأقاربه. وكذا مجلّة L'Etudiant التي تخاطب الطّالب التونسي. أمّا حال استعمال اللغة العربية في الأمور الكتابيّة في المجتمع التونسي خارج الإدارات الحكومية، فيجوز أيضا تسميتها بأنها **فرنكو عربية كتابية** توازي الفرنكو عربية الشّفهية. إذاً، فالمجتمع التونسي اليوم مزدوج اللّغة بالكامل على المستويْن الشّفهي والكتابي، وهي ممارسة لغويّة تونسيّة **تتناقض** مع معايير **السّيادة اللغوية** المشار إليها.

٢- تشير الاستبيانات والملاحظات الميدانيّة المتكرّرة لسلوكات المتعلّمين التونسيّين اللغوية إلى أنّ **أغلبيتهم الساحقة** لا تكاد تبدي - بعفويّة وارتياح- حماسًا واعتزازًا باللّغة العربيّة باعتبارها لغتهم الوطنيّة. فيقترن

ذلك عندهم بغياب موقف قويّ مدافع بعفويّة وغيرة في السرّ والعلانية عن اللّغة العربية. أي لا يكاد يوجد عندهم أكثر من **شعور فاتر إزاء اللغة العربية**[٤]. إنّ اللاّفت للنظر بهذا الصّدد أنّ القيادات السياسيّة التونسية منذ الاستقلال اختارت - عكس ما نجده عند نظيرتها الجزائرية – ألا تطلق تسمية **"الوطنية"** كنعت للّغة العربية كما تفعل ذلك بالنسبة إلى العديد من المؤسّسات والشّركات والبنوك الحكوميّة التونسية. وحرمان اللّغة العربية من نعت **"وطنية"** يفقدها الكثير من مكانتها ومشروعيّتها في عمق بؤرة وعي التونسيّين وممارستهم، إذ تكون بذلك اللغة العربية في تصوّرهم ووعيهم الشّعوري واللاشعوري وكأنها **ليست جزءًا صميمًا من الوطنية التونسية**. فالعلاقة **الفاترة** بين المتعلّمين التونسيّين ولغتهم العربية تفيد أنّ أجيال المتعلّمين التونسيين مزدوجي اللّغة والثقافة أو الأكثر تفرنسًا هي **أجيال فاقدة** لموقف الاعتزاز والحماس والشّعور بالغيرة للدّفاع بعفوية وقوّة عن اللغة العربية. وفي المقابل، تغلب على موقفهم العام من **السّيادة اللغوية** حالة من **اللامبالاة** أو حتى **العداوة السّافرة** لها عند البعض. ويشير ذلك بالبنان إلى ضعف السّيادة اللغوية لدى تلك الأجيال[٥].

٣- **لا يعارض** المتعلمون التونسيّون اليوم استعمال اللغة الفرنسيّة بينهم في الشّؤون الصغيرة والكبيرة التي يقومون بها في مجتمعهم، بل نجد أغلبيّتهم يرغبون في ذلك ويفتخرون به. وهو موقف يعكس **عقدة مركّب النقص** لديهم، ويخالف تمامًا معايير الالتزام بالسّيادة اللغوية في المجتمعات المتقدّمة.

٤- أمّا الموقف القويّ والمتحمّس لصالح إعطاء اللغة العربيّة المكانة الأولى في الاستعمال في كلّ قطاعات المجتمع التونسي فهو **مفقود** لدى أغلبيّة المتعلّمين التونسيّين بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال.

---

[٤] محمود الذوادي، **التخلف الآخر..**، مرجع سبق ذكره.

[٥] F. Fanon, *Les Damnés de la terre*, (Paris : Editions La Découverte, ٢٠٠٢).

٥-يلاحظ غياب هاجس مراقبة النّفس لتجنّب استعمال الكلمات الأجنبيّة عند التونسيين. ولعلّ انتشار ظاهرة الفرنكو عربيّة بين **الشّباب** ولدى الكهول اليوم هو دليل على **ضعف وعيهم بأهميّة السيادة اللغوية**.

٦-إذا كان الألمان والإيطاليّون والفرنسيون والإسبان، مثلاً، يعرفون بتلقائية **هويّتهم** في المقام الأوّل بلغاتهم الوطنيّة[٦]، فإنّ **الازدواجيّة اللغوية والثقافية** لأغلبية التونسيّين لا تكاد تسمح لهم اليوم بربط هويّتهم بوضوح وبسهولة باللّغة العربية: أي الانتماء الواضح والثّابت والقويّ إلى الهوية العربية المستندة على السيادة اللغوية. وليس **الشباب** التونسي استثناء لذلك. وبالطبع لا يبشّر موقفهم هذا بالتفاؤل حول قدرة المجتمع التونسي بعد الثّورة على كسب رهان استرجاع السّيادة اللغوية الكاملة في المستقبل المنظور.

جذور ضعف السيادة اللغوية

يفرض واقع ضعف المناداة بواجب الالتزام باحترام السيادة اللغوية في المجتمع التونسي البحث في جذوره التي تعود إلى الفترة التي تلتْ الاستقلال وكرّسها نظامًا حكم كلٍّ من بورقيبة وبن علي.

يعلن الدستور التونسي أنّ "تونس دولة حرّة مستقلّة ذات سيادة، الإسلام دينها **والعربية لغتها** والجمهوريّة نظامها". يشير هذا البند إلى أنّ اللّغة العربية عنصرٌ أساسي من السّيادة التونسية، لكنّ التونسيّين **عجزوا** في عهديْ بورقيبة وبن علي عن تحقيق السيادة اللغويّة كما تبيّن المؤشّرات التي أوردناها سابقًا. ويرجع ذلك في المقام الأوّل إلى ما أسمّيه **الازدواجيّة اللغوية الأمارة**. إنها تلك الازدواجيّة اللغويّة التي تجعل أصحابها غير متحمّسين للذّوْد عن لغتهم الوطنيّة وغير مبالِين إزاء عدم استعمالها في شؤونهم الشخصيّة وفي ما بينهم وفي أسرهم واجتماعاتهم ومؤسّساتهم، بحيث تصبح عندهم **لغة ثانية أو**

[٦] P. Kraus, *A Union of Diversity..,op.cit.*

ثالثة. ويتناقض هذا السّلوك اللغوي بالتأكيد مع مسعى كسب رهان السّيادة اللغوية في المجتمعات ذات السّيادة الحقيقيّة الكاملة. وينطبق مفهوم الازدواجيّة اللغوية الأمارة على المتعلّمين التونسيّين خرّيجي التعليم الفرنسي والصّادقي في زمن الاحتلال، مثلما ينطبق على التعليم التونسي العام بعد الاستقلال.

عجز التعليم الصادقي عن تحقيق السيادة اللغوية:

هناك اعتقادٌ واسعُ الانتشار في المجتمع التونسي، بأنّ نظام **التعليم الصادقي** هو النّظام التربوي **المثالي** بسبب إتقان تلامذة المدرسة الصادقيّة اللغتيْن والثّقافتين الفرنسيّة والعربية، الأمر الذي يجعل الصّادقيّين، من جهة، متفتّحين على الثّقافة الفرنسيّة والغربيّة بصفة عامّة، ومعتزّين في نفس الوقت باللغة العربية وثقافتها، من جهة ثانية. ومن ثمّ، انتشر اعتقادٌ آخر بين أغلبيّة التونسيّين في عهديْ الاستعمار والاستقلال بأنّ الازدواجيّة اللغوية مكسب **كلّه خير** للذين يعرفون لغتين. لكن دراسات علم النفس **لا تتّفق** مع مثل ذلك الاعتقاد الذي لا يرى إلاّ الإيجابيّات في الثنائية اللغوية للمتعلم[٧]. وبعبارة أخرى، هناك **سلبيّات** على مستويات متعدّدة للازدواجيّة اللغوية. ومن ثمّ، يضع علماء النفس **شروطًا** كثيرةً ينبغي توفّرها في نظام التعليم المزدوج اللّغة والثقافة للحدّ من السّلبيات العديدة التي يتعرّض لها التلاميذ والطلاّب في مثل هذا النظام التعليمي. وهكذا، يتّضح أنّ الاعتقاد السّائد لدى التونسيين في الخير المطلق للازدواجية أو الثلاثيّة اللغوية لصالح الإنسان التونسي، هو **اعتقاد لا يستند على علم بطبيعة الأشياء** كما يقال، بل هو مبني على **جهل بطبيعة الأمور**. واعتمادًا على هذا، لا يجوز علميًّا قبول الازدواجيّة اللّغويّة الثّقافية الصادقيّة على أنّها خيرٌ مطلق لا ضررَ فيه لا من قريب ولا من بعيد على اللغة العربية وثقافتها والانتماء للحضارة العربيّة الإسلامية لدى خرّيجي المدرسة الصادقيّة.

---

[٧] انظر في هذا الشأن: C. Fitouri, *Biculturalisme, bilinguisme et éducation*, (Paris : Delachaux et Niestlé, ١٩٨٣), pp ١٣٢-١٣٦.
وأيضا: Abdelilah- Bauer.B, *Le défi des enfants bilingues*, (Paris : Editions La Découverte, ٢٠٠٨), pp ٥٠-٥٤.

المكانة الأولى للفرنسية وثقافتها عند الصادقيين:

يفيد تحليل الظروف التي اقترن بها التعليم المزدوج اللغة والثقافة للمدرسة الصادقيّة أثناء الاستعمار الفرنسي بأنها ظروف يتوقّع أن تؤدّي عند معظم الطلاّب الصادقيّين إلى احتلال اللغة الفرنسيّة وثقافتها **المكانة الأولى** عندهم، وأنّ اللغة العربية وثقافتها تحتلاّن المرتبة الثانية في تكوينهم المدرسي[٨]. إنّ الانعكاسات السّلبية لمثل **ذلك التقديم والتّأخير** في مواقع مكانة اللّغة الوطنية وثقافتها واللغة الأجنبيّة وثقافتها لدى المتعلّمين الصادقيّين لا تحتاج إلى توضيح كبير، فاللّغة والثقافة العربيّتان الوطنيّتان **تخسران** مكانتهما الطبيعيّة الأولى عند الطلاّب الصادقيّين لصالح اللغة والثّقافة الفرنسيّتين في تكوين شخصيّتهم المعرفية. ويرجع **مشكل** قلب مواقع اللّغتين والثّقافتين لدى المتعلّمين الصادقيّين لصالح اللغة الفرنسيّة وثقافتها إلى **ثلاثة عوامل** رئيسة:

١-**هيمنة استعمال اللغة الفرنسيّة وثقافتها في التعليم الصادقي**: يشير هذا العامل إلى تكوين موقف سلوكي لغوي متعاطف أكثر مع اللّغة الفرنسية وثقافتها عند أغلبيّة المتعلّمين الصادقيّين. وفي المقابل، فإننا نجد تعاطفًا أكبر لصالح اللّغة العربيّة وثقافتها عند المتعلّمين التونسيّين الزيتونيّين ولدى خرّيجي شعبة (أ) المعربة في مطلع الاستقلال. أي أنّ مدى استعمال الفرنسيّة أو العربيّة في التدريس يؤثّر في درجة التعاطف سلبًا أو إيجابًا مع هاتين اللّغتين وثقافتهما عند الطالب التونسي. وبتعبير علم الاجتماع، يجوز القول إنّ الحبّ والاحترام اللذيْن تلْقاهما اللغة الفرنسية وثقافتها لدى الصادقيّين هما إلى حدٍّ كبير حصيلة **لهيمنة اللغة الفرنسية وثقافتها** في التّنشئة المدرسية اللغوية الثقافية لخرّيجي المدرسة الصادقيّة.

---

[٨] أحمد عبد السلام، **المدرسة الصادقية والصادقيون**، (تونس: بيت الحكمة، ١٩٩٤).

٢-لقد تعلّم الطلبة الصادقيّون الفرنسية وثقافتها في عهد الاستعمار الفرنسي لتونس وعلى أيدي عددٍ هائل من المدرّسين الفرنسيّين. وبعبارة أخرى، تعلّم الصادقيّون اللغة الفرنسية وثقافتها في ظروف تسود فيها **علاقة الغالب بالمغلوب** بين المستعمر الفرنسي والمستعمَر التونسي، وهو وضْع يساعد كثيرا - نفسيًّا واجتماعيًّا - على أن تتبوّأ لغة موليير وثقافتها - شعوريًّا ولا شعوريًّا- المكانة الأولى عند خرّيجي المدرسة الصادقية[٩].

٣-لقد أسّس المُصْلح خير الدّين باشا المدرسة الصادقيّة عام ١٨٧٥، والتي جمعت في برامجها لأوّل مرّة في النّظام التربوي التونسي بين العلوم الإنسانيّة والعلوم الصّحيحة واللّغات الأجنبيّة وفي طليعتها اللّغة الفرنسية. ولم يكن كسْب رهان **الحداثة الغربيّة والأفكار المستنيرة** هاجس خير الدّين فقط، بل كان أيضًا دافعًا قويًّا لدى مناصريه من الشّيوخ والعلماء، أمثال محمود قابادو وسالم بوحاجب ومحمد السنوسي وغيرهم. أي أنّ رجال خير الدين الزيتونيّين هم الذين حثّوه وساعدوه على إنشاء مدرسة حديثة ترحّب بالاطّلاع وتعلّم علوم العصر. فالسّعي إلى وضع تونس على درب الحداثة كان الهدف الرئيس لتأسيس المدرسة الصّادقيّة. ومن ثمّ، أصبح تعلّم الفرنسية وثقافتها في مخيال أغلبية التونسيين هو **التأشيرة** اللازمة لدخول رحاب الحداثة. وبالتأكيد يفسّر اقتران الحداثة بتعلّم اللغة الفرنسية وثقافتها المكانة الأولى التي تحظى بها هذه اللغة وثقافتها عند معظم الصادقيّين.

ومن منظور علم النّفس الاجتماعي، فإنّ تلك العوامل المذكورة سوف تشكّل **موقفًا إيجابيًّا جماعيًّا** يعطي اللغة الفرنسية وثقافتها الصّدارة والتفضيل عند الصادقيّين على حساب اللغة العربية (اللغة الوطنيّة) وثقافتها. **فلا يجوز إذاً** وصْف النظام التعليمي الصّادقي بأنّه الأفضل على مستوى ربط

[٩] انظر في: F. Fanon, *Les Damnés de la terre*..Op.Cit.
وأيضا: A. Memmi, *Portrait du Colonisé et du Colonisateur*, (Paris : Editions Gallimard, ١٩٨٥).

الصادقي ربطًا طبيعيًّا بلغته وثقافته الوطنيّتين العربيتين. وكان يمكن أن يكون النظام التعليمي الصادقي الأفضل لو أنّ اللغة العربية وثقافتها تحتلاّن المكانة الأولى في قلوب خرّيجي المدرسة الصادقية وعقولهم واستعمالاتهم.

كان **نظام تعليم شعبة (أ) المعرّبة** في فجر الاستقلال هو النظام التعليمي الوطني الحقّ المرشّح أكثر من غيره ليكون النظام التعليمي **الأفضل** الذي يمكّن المجتمع التونسي من الظّفر **بالسيادة اللغوية**، لأنه يؤهّل خرّيجيه لتكون للغة العربية وثقافتها المكانة الأولى في قلوبهم وعقولهم واستعمالاتهم. لقد تعرّضت شعبة (أ) إلى **الإجهاض** وهي جنين على يديْ وزير صادقي للتربية والتعليم، **فضاعت أعزّ فرصة** لرؤية أجيال تونس ما بعد الاستقلال تمنح اللغة العربية وثقافتها المكانة الأولى في قلوبها وعقولها واستعمالاتها. وبعمليّة إجهاض توطين اللغة العربية وثقافتها في الشخصية التونسية القاعديّة تجذّرت **معالم الاستعمار اللغوي الثقافي** في تلك الشخصية و بقيت حيّة ترزق بعد أكثر من خمسة عقود من الاستقلال. ولا يبدو أنّ فجر زوال شبكة الاستعمار اللغوي الثقافي قريب، وهو الذي لا تكاد تعارض استمرار وجوده أجيال عهد الاستقلال التي تأثّرت برؤية خرّيجي المدرسة الصادقيّة ومدارس البعثات الفرنسيّة الذين احتلّوا المواقع الحسّاسة في إدارة البلاد من أعلى هرم السلطة السياسيّة إلى أدنى الوظائف أهميّة.

ومن ثمّ، فلا علم النفس ولا علم الاجتماع يتجرّأ على القول إنّ التعليم الصادقي هو فعلاً تعليم تونسي مثالي، لأنّ اللغة العربية وثقافتها تتبوّآن **المكانة الثانية** عند معظم الصادقيّين رغم أنّهما معْلمان وطنيان مركزيّان لهويّة الشعب التونسي، بمعنى الوطنيّة الكاملة. إنّهما شعار للوطنيّة مثلهما مثل العلم التونسي. ومن ثمّ، فعالم النفس وعالم الاجتماع ينظران إلى تبوّء اللغة العربيّة وثقافتها المكانة الثانية عند

الصادقيّين على أنه **أمر غير طبيعي**/ غير مألوف (منحرف) في علاقة الشّعوب بلغاتها وثقافاتها الوطنية، كما رأينا ذلك في مؤشّرات السّيادة اللغوية عند المجتمعات المتقدّمة.

وعلى هذا الأساس يمكن تفسير **الصّمت شبه الكامل** بعد الاستقلال لدى معظم النّخب السياسيّة والثقافية الصادقيّة والدّارسة في المدارس المفرنسة بخصوص **مسألة التحرّر/ الاستقلال اللغوي والثقافي** من فرنسا[١٠]. وكما بيّنا، فالتعليم الصادقي عاجزٌ عن مدّ خرّيجيه بتكوين تعليمي يعطي المكانة الأولى للّغة العربية وثقافتها، فموقف هؤلاء جميعًا **لا يكاد يمانع** في استمرار حضور الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي بقوّة في المجتمع التونسي بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال. وهكذا فتحت الأبواب عريضةً أمام **فقدان السيادة اللغوية** في المجتمع التونسي بعد الاستقلال.

ويتّضح أنّ ضعف السّيادة اللغوية بعد رحيل الاستعمار شارك فيه – **بالوكالة** - معظم التونسيّين أصحاب الازدواجيّة اللغوية الأمارة التي طالما خلقت **نفوسًا وعقولاً سجينةً للغة المستعمر وفكره** وفقًا لمفهوم **العقل السجين Captive Mind** لعالم الاجتماع الماليزي المعروف سيد حسين العطاس[١١]. وهكذا، يكاد ينعدم الأمل في حصول تونس على السيادة اللغوية، أهمّ السيادات جميعا، في المستقبل المنظور، إذ لا يتعلّق الأمر هنا بثورة تونسيّة نجحت في إسقاط النظام السياسي في البلاد، وإنّما يحتاج الوضع في المجتمع التونسي اليوم وبإلحاح إلى ثورة أخرى تتمثّل في **تغيير لغوي ثقافي فكري يحرّر النفوس والعقول** من سجن ووزر لغة الآخر المستعمر وثقافته وفكره من أجل إبرام **عقد مصالحة** جديدة مع الذّات عبر الظّفر بالسيادة اللغوية والثقافية. فالمرء يرى اليوم في المجتمع التونسي توجّهات في الاتّجاه المعاكس لفكر العطاس. فلا يخفى أنّ هناك مثقّفين وسياسيين تونسيين يدعون إلى تغيير البند الأوّل من الدستور

[١٠] محمود الذوادي، "في سوسيولوجيا أسباب نجاح وتعثّر توطين اللغة في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي"، **المستقبل العربي**، العدد ١٤٢، ١٩٩٠، ص.ص ٤٠-٥٦.

[١١] S. H. Alatas, "The Captive Mind in Development Studies", **International Social Science Journal,** ٣٤ (١), ١٩٧٢, pp ٩-٢٥.

التونسي بما فيه ربّما وضع **اللغة العربية** التي هي الآن لغة وطنية. كما أنّ قضيّة السيادة اللغوية كجزء من تأصيل الهويّة التونسية غير مطروحة تمامًا بعد الثورة في كلّ وسائل الإعلام التونسية، بينما تهرع، مثلا، معظم القنوات التلفزيونية لنقل مظاهرة تونسية صغيرة لصالح اللاّئكية.

وعلى مستوى آخر، شرع المسؤولون في وزارة التربية في العهد السابق في التّخطيط لتعليم ابتدائي ثلاثي اللغات [عربية وفرنسية وإنجليزية]، كان ينتظر البدْء في تطبيقه في السنة الدراسية ٢٠١١-٢٠١٢. وهو نظام تعليم يتوقّع أن يقود إلى **ثلاثيّة لغويّة أمارة** أيضًا، قياسًا على تجربة التعليم التونسي المزدوج اللّغة قبل الاستقلال وبعده. فالتّحليل الموضوعي يحيل إلى **خيبة أمل** في مستقبل ثورة قادها شباب أعماق تونس في سيدي بوزيد والقصرين **إن هي فشلت في استرجاع السّيادة اللغوية الكاملة** للمجتمع التونسي. فشعب من دون لغة سيتحكّم الآخرون في مستقبله. وهذا الذي رفضه اليابانيّون، فكسبوا رهان النّهضة والأمن على مستقبلهم. ومن ثمّ، يصعب الاطمئنان على مسيرة الثورة دون أن يطبع التونسيون تمامًا علاقتهم مع لغتهم الوطنية: اللغة العربية. ألا يعطي كلّ ذلك مشروعية قصوى لكي تصبح **وزارة الثقافة وزارة سيادة** في المجتمع التونسي؟ فالمجتمع الذي لا تحتلّ فيه الثقافة وفي طليعتها اللغة الوطنية مكانتها المميّزة **يعطل أهم مكوناته الذاتية** التي من دونها يكون غيرَ مؤهّل للظّفر بالمعالم الحقيقيّة للتقدّم والنّهضة.

الحديث التونسي التقليدي عن التعريب:

ولكسب رهان السّيادة اللغوية والنّجاح في الثورة على **الوجه الآخر للاستعمار**، نحتاج إلى تشخيص جديد لمسألة التعريب. ويقترن هذا الأخير عمومًا عند التونسيّين أفرادًا ومؤسّسات بكتابة الوثائق الإدارية والكتب المدرسية ولافتات الشّوارع باللغة العربية بدل اللغة الفرنسية، أي القضاء على

الغربة بين المجتمع التونسي ولغته الوطنيّة. فمثل هذا الطّرح لقضية التعريب هو ما أَلِفه **التصوّر الذّهني** للتونسيين في عهد الاستقلال، بحيث أصبح التعريب الكتابي النّمط التقليدي الوحيد الذي يتعامل به التونسيون مع مسألة تجذير اللغة العربية وتطبيع حضورها في المجتمع التونسي. ورغم أنّ هذا النّوع من التعريب ضروري، إلاّ أنه غير كافٍ لإقامة تعريب حقيقي وطبيعي في هذا المجتمع، **فالتعريب الأصيل والمؤصل** لا يمكن أن يتمّ من دون ما نسمّيه التعريب النفسي.

ما هو التعريب النفسي ؟

يعني هذا المصطلح عندي ضرورة وجود **علاقة حميمية** بين التونسيّين واللغة العربية، فالتّعريب النفسي يدلّ على حصول **تطبيع للعلاقة بالكامل بين المجتمع ولغته**، أي أن تحتلّ اللغة الوطنيّة بطريقة عاديّة وعفويّة الموْقع الأوّل في قلب المواطن التونسي وعقله واستعماله وأن يشعر هذا الأخير بالافتخار والاعتزاز بذلك؛ وألاّ يقبل أن تكون اللغة العربية في المكانة الثانية أو الثالثة في مجتمعه، فيحتجّ بقوّة على ذلك لدى المسؤولين وأمام جمهور الناس؛ ويتّخذ السّبل لتوعية الناس بمدى أهميّة أن تصبح علاقة التونسيّين باللغة العربية علاقة طبيعيّة مثلما هي العلاقة طبيعية بين أفراد المجتمعات المتقدّمة ولغاتهم الوطنية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان وكوريا الجنوبية مثلاً.

يفيد فحص السياسات الحكومية خلال فترة ما بعد الاستقلال أنّ مفهوم التّعريب النفسي غائب بطريقة شبه كاملة في سياسات التعريب، فلا يعرف مثلاً عن حكومات الاستقلال القيام بحملات شعبية - تشبه حملات التنظيم العائلي- عن طريق وسائل الإعلام لتوعية المواطنين وتحسيسهم إزاء إقامة علاقة عضويّة وطبيعية مع اللغة العربية، لغتهم الوطنية.

إنّ منطق الأمور وعلم النّفس الاجتماعي يؤكّدان أنه لو وجدت عقليّة التعريب النفسي بين أغلبيّة التونسيّين في عهد الاستقلال لما كان هناك هذا الحضور الكبير للسلوكات اللّغوية الشّفهية والكتابية المشينة للغة العربية لدى الخاصّة والعامّة من التونسيّين. ويعدّ نشر **خطاب التعريب النّفسي العمود الفقري** والأساس الرّئيس **والاستراتيجي** للنّجاح الحقيقي في سياسة التعريب وكسب رهان السّيادة اللغوية، إذ تتماشى مثل تلك السّياسة اللغوية مع مثلنا الشّعبي التونسي القائل "قصّ الراس تنشف العروق".

والسؤال المشروع هنا بالنسبة إلى الباحث الاجتماعي في قضيّة التعريب في المجتمع التونسي الحديث هو: لماذا غيّبت السّلطات التونسيّة منذ الاستقلال الحملات الشّعبية لصالح التّعريب النفسي؟

تفسّر العلوم الاجتماعية غياب تلك الحملات بعاملَيْن رئيسيْن:

١- ضعف التعريب النفسي الموجود أصلاً – كما رأينا – عند خرّيجي المدرسة الصادقية وهو أضعف بدرجة **أكبر** عند خرّيجي مدارس البعثات الفرنسيّة.

٢- وكما ذكرت من قبل، لقد احتلّ المتعلّمون الصادقيّون والدّارسون في مدارس البعثات الفرنسيّة مراكز السّلطة ومناصبها الحسّاسة والمؤثّرة لقيادة البلاد وإدارتها بعد الاستقلال، فكان هرم السّلطات التونسيّة العالية يتكوّن من خرّيجي المدرسة الصادقيّة ونظرائهم من مدارس البعثات الفرنسية. وكما أشرت فإنّ الأغلبيّة السّاحقة من هؤلاء **يشْكون من ضعف التّعريب النفسي**. وجاءت الخلافات السياسيّة للقيادة البورقيبيّة مع قادة المشرق العربي لتنفر القيادة السياسيّة التونسية ومن ثمّ معظم المواطنين **أكثر** من سياسة التعريب الكتابي ناهيك عن التعريب النفسي. ومن هنا يجوز القول بكلّ مشروعيّة إنّ **ظاهرة التردّد والاضطراب والتراجع في مسيرة التعريب** بعد الاستقلال في المجتمع التونسي

تعود في المقام الأوّل من جهة إلى مدى انتشار غياب التّعريب النفسي عند النّخب السياسيّة الحاكمة والمثقّفين والمتعلّمين والسلطات الأخرى صاحبة النّفوذ في إدارة البلاد. ومن جهة ثانية، يعود الأمر إلى تدخّل عامل العلاقة السياسيّة مع المشرق العربي. فقضيّة التعريب في تونس قضيّة **مسيّسة** على أكثر من مستوى: القيادة السياسيّة البورقيبيّة لم تكن أصلاً متحمّسة لسياسة التّعريب بسبب **إعاقة** ضعف التّعريب النّفسي والازدواجيّة اللغوية الأمارة التي تصدّ عن تبنّي موقف متحمّس لصالح اللغة العربيّة/الوطنية. وممّا زاد طين ضعف التّعريب النفسي بلّة اختلاف النظام السياسي التونسي البورقيبي وصراعه مع بعض قادة النّظم السياسيّة في المشرق العربي. وعلى مستوى ثالث، لا يستبعد أن يكون هناك **ضغط سياسي فرنسي** منذ الاستقلال عام ١٩٥٦على أولي الأمر في تونس لكي تحافظ اللغة الفرنسية وثقافتها على مكانة محترمة، إن لم تكن الأُولى.

معالم تآمر المثقف مع الأمير

لقد أدّى نظام التعليم التونسي في عهديْ بورقيبة وبن علي إلى **تآمر المثقّف مع الأمير** ضدّ اللغة العربية وثقافتها. ويجوز تطبيق هذا التآمر على خرّيجي مدارس البعثات الفرنسية والمدرسة الصادقيّة والمدارس والجامعات التونسية في عهديْ الاحتلال والاستقلال معًا. وكما بيّنت من قبل، تفيد الملاحظات المتكرّرة للسّلوكات اللغويّة لمعظم هؤلاء الخرّيجين التونسيّين منذ الاستقلال وحتى يومنا هذا أنّ اللغة العربية لا تتمتّع بعفويّة وحماس لدى معظمهم. وبهذا الصّدد، يمثّل المجتمع التونسي مخبرًا ثريًّا للباحث في المسألة اللغوية ودراسة **الآثار الأمارة** للازدواجيّة اللغوية على الأطفال والكهول من التونسيّات والتونسيّين، وفي طليعتهم نجد النّخب السياسيّة والفكرية والمثقّفين والمتعلّمين مزدوجي اللغة في فترتيْ الاستعمار والاستقلال. وللتفصيل أكثر في ما وقعت الإشارة إليه من قبل، يكفي إلقاء الضّوء على سلوكين لغويّين

لشخصيتين بارزتين في الساحة التونسية لما بعد الاستقلال، وثبت معهما أنّ الازدواجيّة اللغوية عند النّخب السياسيّة التونسية القيادية **في غير صالح اللغة العربية:**

١ موقف الرئيس **بورقيبة المزدوج اللسان** معروف بضعف تحمّسه وعزمه على إنجاح عملية التعريب وكسب رهان التحرّر/الاستقلال اللغوي والثقافي لمجتمعه، الأمر الذي يفسّر مثلاً، لومه الشّديد لوزيره السيد محمد مزالي الذي قاد حركة التعريب سنوات عديدة.

٢ الأستاذ **محمود المسعدي** الوزير/السياسي **المزدوج اللغة** كذلك، هو الذي قرّر وضْع نهاية لنظام التعليم المعرّب الجديد والمتمثّل في ما كان يسمّى بالشعبة [أ] التي كانت ضمن خطّة تونسية في مطلع الاستقلال تجعل اللّغة العربية هي لغة التعليم الأولى. وتتكوّن هذه الخطّة من ثلاث شعب (فروع) هي:[أ] المعربة بالكامل و[ب] المزدوجة اللغة (عربية/ فرنسية) و[ج] التي تهيمن عليها اللغة الفرنسية. ووفقًا لهذه الخطّة، فإنّ الشعبة [أ] هي الشعبة الدائمة والثابتة وأنّ الشعبتين [ب] و[ج] مؤقّتتان، بحيث تصبح شعبة [أ] في نهاية المطاف هي الشعبة النموذجية للتعليم التونسي الإعدادي والثانوي في عهد الاستقلال. ولكن الوزير المسعدي قرّر إلغاء شعبة [أ] المعرّبة والإبقاء على شعبة [ب] صاحبة الازدواجية اللغويّة **الأمارة** كشعبة نموذجيّة دائمة وثابتة بديلة عن الشّعبة [أ].

يسمح موقفَا الرئيس بورقيبة والأستاذ المسعدي بالقول إنّهما يستبطنان **الازدواجية اللغوية الأمارة** بالسوء ويمارسانها ضدّ اللغة العربية. ويستنتج من التحليل الوافي أنّ بورقيبة كان مجرد رأس جبل الجليد بالنسبة إلى فقدان التحمّس لتعريب المجتمع التونسي. إذ إنّ أغلبيّة وزرائِه والمسؤولين الكبار كانوا متعاطفين مع موقفه. ويمكن تفسير هذا الوضع السّلبي إزاء اللغة العربية في عهديْ بورقيبة وبن علي **بنوعيّة التعليم** السّائد في المجتمع التونسي الحديث، فالتعليم اللّغوي الثقافي التونسي المزدوج اللغة تهيمن فيه اليوم الفرنسية ابتداءً من المرحلة الثانوية. وبالتالي، يهيّئ هذا التعليم الخرّيجين **للتّعاطف أكثر مع اللغة الفرنسية وثقافتها** بدلاً من اللّغة العربية وثقافتها. وكما سبق ذكره، يرى عالم الاجتماع الشّهير سيد حسين العطاس أنّ متعلّمي الازدواجية اللغوية والمعرفيّة الأمارة في العالم الثالث وجامعيّها ومثقّفيها هم أصحاب **عقول سجينة** للمعرفة الغربية **تعيقهم عن الإبداع وإضافة الجديد**. كما أنّ علميْ النّفس والاجتماع يؤكّدان أنّ الازدواجية اللغوية والمعرفيّة الأمارة تُحدث ارتباكات واضطرابات وصراعات في هويّات الأفراد والمجتمعات[١٢].

وبكثير من الشّفافية، يتجلّى **تآمر التعليم المزدوج على اللّغة والثقافة العربية** عند خرّيجي المدارس المفرنسة والصادقيّين وأغلبيّة أجيال خرّيجي التعليم التونسي بعد الاستقلال. فالباحث يلاحظ عمومًا لدى هذه الأصناف الثلاثة من المتعلّمين التونسيّين **اغترابا** عن لغتهم وثقافتهم بحيث يصبحون مرشّحين للنّظر

[١٢] Abdelilah- Bauer.B, *Le défi des enfants bilingues*.., Op.Cit., pp ٥٠.٥٤.

إليهما بكثير من **التحقير والدّونية.** تشير المعطيات إلى أنّ التعليم المزدوج اللغة والثقافة يحدث - حتّى عند الصادقيّين- **تشويشًا** وربّما تصدّعًا في الانتساب إلى الهويّة العربية الإسلامية. وهكذا جذّرت تلك النظم التعليمية في عهديْ الاحتلال والاستقلال لدى خرّيجيها **قبول الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي وحتّى الترحيب به.**

وفي المقابل، يمثّل التعليم الزيتوني الثانوي ونظام شعبة[أ] المعربة في بداية الاستقلال نوعًا مختلفًا عمّا رأيناه في أنماط التعليم الثلاثة السّابقة الذّكر، فاللغة العربيّة هي سيّدة الموقف عند المتعلّمين الزيتونيين وتلامذة نظام شعبة[أ]. تؤكّد الدلائل أنّ اللغة العربية لدى خرّيجي شعبة[أ] والتعليم الزيتوني تحتلّ المكانة الأولى في قلوبهم وعقولهم واستعمالاتهم، وأنّ مزدوجي اللغة بينهم [العربيّة والفرنسية] ينتمون إلى ما أسمّيه بالازدواجية اللغوية **اللوّامة** التي تجعلهم يلومون أنفسهم ويلومون التونسيّين الآخرين الذين يستعملون الفرنسية في الشّؤون الخاصّة والعامّة في المجتمع التونسي.

ومن هنا يتّضح أنّ وزر **التخلّف الآخر الاستعماري** لم يستبطنه نظام بورقيبة وبن علي فقط، بل **رحّبت وترحّب به أيضا** أغلبيّة النّخب المثقّفة والمتعلّمة والطبقات الاجتماعيّة العليا والمتوسّطة التونسية. فعلى سبيل المثال، لم يُقْص نظام بورقيبة وحده خرّيجي الزيتونة من المناصب العليا في البلاد، بل **شاركه** في ذلك **الجامعيون التونسيون** ذوو الازدواجيّة اللغوية الأمارة، بحيث أقصَوْا من العمل في الجامعة زملاءَهم

الزيتونيّين الذين تحصّلوا على شهاداتهم من جامعات غربيّة. وبسبب سيطرة أصحاب الازدواجية اللغوية الأمارة على مقاليد الحكم والسّلطة أفقيًّا وعموديًّا، هيمن الصّمت شبه الكامل على التخلّف الآخر/الاستعمار اللغوي الثقافي. وهو استعمار يهيّئ الشعب التونسي للخنوع والرّضاء بالبقاء ضحيّة بين **مخالب التبعية الفرنسية/الغربية** إلى أجل غير مسمًّى. إنه سكوت يمثّل **تآمرًا شعبيا مع السلطان** على لغة المجتمع التونسي وثقافته، بحيث أصبحت الازدواجية اللغوية الأمارة **شعارَ التفتح** عند نظاميْ بورقيبة وبن علي وأغلبية التونسيين.

إنّ صمت الشعب التونسي اليوم عن **الانعتاق من التخلف الآخر** لا يبشّر بنجاح حقيقي لثورة شباب تونس الثقافية التي قادها شباب الأعماق التونسية، فهؤلاء لا يرضون باستمرار وزر التخلف الآخر/الاستعمار اللغوي الثقافي. وإذا لزموا الصّمت عن التحرّر من التخلف الآخر وكسب رهان **الاستقلال الثاني**، فإنه يصعب التفاؤل بمستقبل حركتهم الثورية الثقافية، فمن دون التحرر من أخطر بقايا الاستعمار الفرنسي، ستبقى الثورة منقوصة أو ستسير في **الاتجاه المعاكس**. أولم يردّد المفكّرون والمؤرّخون وعلماء النفس والاجتماع القول حول **القوى الفاعلة** في دفع مسيرات حركات المجتمعات البشرية وتحوّلاتها نحو الأفضل: **بأن الشعوب التي لا لغة لها يصنع غيرها مستقبلها؟**

ضرورة الثورة لإسقاط نظام التعليم

يتّضح ممّا سبق بيانه أنّ عهديْ الاحتلال والاستقلال نجحا **على الأقل** في تشويش العلاقة بين أغلبية التونسيين ولغتهم الوطنية/اللغة العربية. وبكلّ المقاييس، فالأمر خطير لا تسمح به المجتمعات صاحبة السيادة الكاملة كما رأينا ذلك في مجتمعات الاتحاد الأوروبي واليابان وكوريا الجنوبية. فالثورة التونسية مطالبة **بأنْ تسقط نظام التعليم** الذي تهيمن فيه **الازدواجية اللغوية الأمارة** وتضع مكانه **نظامًا تعليميًّا بديلاً** ملتزمًا بأخلاقيات الثورة. وفي نظري، يمثل نظام شعبة [أ] الذي قُبر خلال عهد بورقيبة البديل المناسب الذي ينبغي أن يتبنّاه المجتمع التونسي لما بعد الثورة. وكما شرحنا أعلاه، فإنّ خرّيجي شعبة [أ] يتّصفون بما سمّيته بالازدواجية اللغوية **اللوامة** و**بالتعريب النفسي** المتين، الأمر الذي سيؤهّل أجيال التونسيين في الحاضر والمستقبل لتطبيع علاقتهم بالكامل مع اللغة العربية/الوطنية كما تفعل المجتمعات المتقدّمة مع لغاتها الوطنية. ويعتبر تبنّي هذا النظام التعليمي البديل **أكثر الأمور استعجالاً** لكسب رهان الانتصار الحقيقي للثورة التونسية، إذ أنّ الشعوب الفاقدة لسيادتها اللغوية لا تستطيع التحكّم في التخطيط المستقلّ لصنع مستقبلها الآمن على المدى الطويل. ولا يعني هذا أبدًا التخلّي عن تعلم اللغات الأجنبية وفي طليعتها اللغة الإنجليزية لغة العلوم اليوم، بل يجب أن يصبح **إتقان لغة أجنبية** على الأقلّ من ثوابت المدرسة التونسية لما بعد الثورة لكن دون أن تقود

معرفة اللغات الأجنبية إلى إعادة نشْر شبح الازدواجيّة أو الثلاثيّة اللغويّة الأمارة التي تتّصف بها أغلبية المتعلمين التونسيين اليوم نتيجة لنظام التعليم ذي الازدواجية اللغوية الذي نشأوا فيه. ويتمثّل الرّهان الكبير للنظام التعليمي البديل في تطبيع علاقة كلّ التونسيين والتونسيات باللغة العربية/لغتهم الوطنية.

ينتظر أن تكون لهذا النظام التعليمي الجديد **فوائد خاصّة للتونسيات** اللائي ربّما يفتقدن علاقة طبيعية مع اللغة العربية كما تلاحظ ذلك عيون عالم الاجتماع. فما يلفت نظره مثلا في السلوك اللغوي للمرأة التونسية هو مبالغتها في استعمال اللغة الفرنسية بدل العامية العربية التونسية النقيّة في حديثها عن **الألوان والمقاييس والأيام والأرقام**، فنحن لا نكاد نسمع أيّ تسمية للألوان باللغة العربية عندما نرافق زوجاتنا أثناء شرائهن بعض الملابس، إذ لا يتم الحديث عن ألوان الملابس ومقاييسها في العادة إلاّ باللغة الفرنسية. فيندر استعمال الكلمات العربية للون الأزرق والأسود والأبيض والوردي والرمادي في حديث النساء المشتريات والبائعات على حدّ سواء. وتهيمن اللغة الفرنسية أيضا بطريقة شبه كاملة على الحديث عن مقاييس طول الملابس وعرضها. فهذا الاستعمال المتكرّر باللغة الفرنسية في هذه المناسبات في دنيا عالم النساء يؤدّي إلى نشأة **عرف لغوي عام** بين التونسيات يعطي الأولوية للفرنسية بحيث يجعلهنّ **يخجلن من استعمال اللغة العربية** في الحديث عن الألوان والمقاييس والأرقام. ويشبه هذا الوضع ما نجده من خجل التونسيين والتونسيات في كتابة صكوكهم المصرفية [شيكاتهم] باللغة العربية.

وحتى نسمّي الأشياء بأسمائها، نقول إنّ كلّ تلك الأمثلة تشير إلى استمرار **حضور لا واعٍ** لرواسب الاستعمار اللغوي الفرنسي بين أغلبيّة التونسيات[١٣]، فأغلبية هؤلاء التونسيات مرشّحات لكي يكنّ أمهات لا تحتلّ عندهن اللغة العربية المكانة الأولى. وممّا لاشكّ فيه، أنّ هذا الوضع اللغوي سوف **يؤثّر سلبًا في علاقة الأطفال والمراهقين التونسيين باللغة العربية/الوطنية**. ويلاحظ الباحث ظاهرة ما أسمّيه **تسلّط اللغة الفرنسية** على السلوك اللغوي للتونسيات وغياب الاحتجاج على ذلك في المجتمع التونسي[١٤].

وهناك عمومًا ردّ فعل مجتمعي في **الاتجاه المعاكس** يكاد يمدح المرأة التونسية على استعمالها للّغة الفرنسية بدل العربية، بينما يحتاج الأمر إلى **ثورة نسائية لغوية** تضع نهاية للاغتراب اللغوي الذي يهدّد هويّة المرأة وهويّة أجيال اليوم والغد.

إذاً، فالثورة التونسية أمام تحدٍّ كبير لإسقاط النظام التعليمي القائم منذ عهد الاحتلال وتأسيس نظامٍ تعليمي بديل قادر على **القطع الثوري** مع نظام التعليم القديم الذي لم تمثّل عنده **السيادة اللغوية** أولويّة.

ولتعزيز مقولة هذا البحث، دعونا ننظرْ إلى الأمر من رؤية العلوم الاجتماعية. وتقول هذه الأخيرة إنّ **اللغة هي أمّ الرموز الثقافية جميعا.** فلا يمكن مثلاً تخيل وجود عناصر ثقافية كالدين والعلم والفكر من دون

---

[١٣] محمود الذوادي، **الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث.**، مرجع سبق ذكره، ص. ص ١٩٥-٢٤٢.

[١٤] M. Dhaouadi, *L'univers des symboles humains: L'Autre sous-développement au Maghreb et au Tiers-monde*, (Tunis : ed. l'Or du Temps, ٢٠١٠), pp ١١٧-١٦٠.

حضور اللغة في شكلها المنطوق على الأقل. ونظرًا لمركزية اللغة في نشأة منظومة الثقافة، فإنّ وصف **الإنسان بأنه حيوان ناطق** وصفٌ مشروع جدا. وللتعمّق أكثر، أقول إنّ اللغة المنطوقة والمكتوبة هما مصدر تميّز الجنس البشري عن سواه بمنظومة الثقافة. ومن ثمّ، فالإنسان ليس حيوانًا ناطقًا فحسب كما قال القدماء، بل هو أيضا كائن ثقافي بالطبع. وهي رؤية يتبنّاها بقوّة اليوم **علم الاجتماع الثقافي**. ويتجلّى من **البحث الأساسي** الذي يتعمّق في فهم جوهر الأشياء وطبيعتها أنّ **اللغة هي الركيزة الأولى** التي من دونها تغيب ظاهرة الثقافة الإنسانية وسيادة البشر على بقيّة الكائنات، أي أن البشر يكتسبون تاج إنسانيتهم بوساطة اللغة بشكليْها المنطوق والمكتوب، فهبة اللغة البشرية هي الحدّ الفاصل بين عالم الإنسان وعوالم الأجناس الأخرى. وهكذا، يصحّ القول بالصّيغة الديكارتيّة: أنا **أستعمل لغة، إذنْ أنا إنسان**.

يسمح الطرح الفكري المختصر لعلماء الاجتماع الثقافي والقائل بمركزية اللغة في هويّة الإنسان وإنسانيته وسيادته في هذا العالم بفهم **المغزى والحكمة** من المناداة في هذه المقالة بنظام تعليمي تونسي جديد تصبح فيه **اللغة العربية /الوطنية مركزية** في كل مراحل التعليم من الابتدائي إلى ما بعد الجامعي، بحيث لا تخسر مركزيّتها عند **التونسيات والتونسيين** كما هي الحال في نظام التعليم التونسي في عهديْ الاحتلال والاستقلال. وكما رأينا، فالإنسان كسب رهان إنسانيته باستعماله للغة ما، **واستعمال اللغات الوطنية** اليوم في مدارس المجتمعات المتقدّمة صاحبة السيادة وجامعاتها هو **علامة بارزة على المواطنة**.

أو ليست ضرورة **ثورة التونسيّات والتونسيين** على النظام التعليمي القائم **أمرًا عاجلاً** لا يقبل التأجيل حتى يصبح استعمال اللغة العربية/الوطنية في كل شؤونهم الشخصية والمجتمعية شرفًا لمعنى **المواطنة الأصيلة**؟

بذلك يكسبون رهان **سيادتهم اللغوية المفقودة**، والتي من دون النجاح الكامل في إحرازها يصعب الحديث عن ثورة حقيقية في المجتمع التونسي تؤهّله لصنع حاضره ومستقبله بنفسه وبالتالي إلى الظفر بعربون النهضة والتقدّم بخطى راسخة تبشّر بانبلاج فجر عهد جديد لمصير هذا المجتمع الذي قاد الثورات العربية في مطلع ٢٠١١.

المراجع باللغة العربية:

١. الذوادي. محمود، "في سوسيولوجيا أسباب نجاح وتعثر توطين اللغة في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي"، **المستقبل العربي**، العدد ١٤٢، ١٩٩٠، ص.ص ٤٠-٥٦.

٢. الذوادي. محمود، **التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث**، (تونس: الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢).

٣. الذوادي. محمود، **الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث**، (تونس: تبر الزمان، ٢٠٠٦).

٤. الذوادي. محمود، **الازدواجية اللغوية الأمارة في الوطن العرب**، مخطوطة كتاب يتوقع نشرها في ٢٠١٢.

٥. عبد السلام. أحمد، **المدرسة الصادقية والصادقيون**، (تونس: بيت الحكمة، ١٩٩٤).

المراجع باللغة الأجنبية:

١. Alatas. S. H., "The Captive Mind in Development Studies", **International Social Science Journal,** ٣٤ ,(١) ١٩٧٢, pp ٩-٢٥.

٢. Bauer.B. Abdelilah, *Le défi des enfants bilingues*, (Paris : Editions La Découverte, ٢٠٠٨).

٣. Dhaouadi. M., *L'univers des symboles humains: L'Autre sous-développement au Maghreb et au Tiers-monde*, (Tunis : ed. l'Or du Temps, ٢٠١٠).

٤. Fanon F., *Les Damnés de la terre*, (Paris : Editions La Découverte, ٢٠٠٢).

٥. Fitouri C., *Biculturalisme, bilinguisme et éducation*, (Paris : Delachaux et Niestlé, ١٩٨٣).

٦. Kraus P., *A Union of Diversity: Language, Identity and Polity-Buildingin Europe*, (Cambridge: Cambridge University Press, ٢٠٠٨).

٧. Memmi A., *Portrait du Colonisé et du Colonisateur*, (Paris : Editions Gallimard, ١٩٨٥).